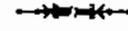


في الاجتماع اللغوي

نشأة مراكز اللغة

للدكتور علي عبد الواحد وافي



يمتاز الإنسان بصدده التعبير عن بقية الفصائل الحيوانية بأصوات : أحدها اللغة الصوتية ، وثانيهما المراكز الخفية التي تشرف على مختلف مظاهر هذه اللغة (مراكز إصدار الألفاظ ، مراكز حفظ الكلمات المجموعة ، مراكز الكلمات المرئية ... الخ) فقد ثبت أن هذه المراكز ليس لها نظير في منح أية فصيلة حيوانية أخرى حتى للفصائل العليا من القرود نفسها فالبحث في نشأة اللغة يتطلب إذن دراسة موضوعين اثنين : أولهما نشأة الكلام في لفصيلة الإنسانية ؛ وثانيهما نشأة مراكز اللغة في المخ الإنساني وقد درستا أول هذين الموضوعين في المقال السابق ، وستعالج ثانيهما في هذا المقال

على الأزهر الحديث إذن أن يربأ ما أنأت يد الغفلات إذا أراد أن ينظر الناس إلى لفقته فيما يأخذون به من تشريع ، ويسنون من قانون

على الأزهر الحديث أن يلبى مطالب الزمن ، وأن يعرف مواضع الحاجة القومية فيجهد في وضع حلول من لفقته الواضح الجيد لهذه المشاكل التي تمرض للناس في حياتهم الاجتماعية : في بيوتهم ، وبناتهم ، واقتصادهم ، وقضاياهم ، وعقوباتهم ! عليه أن ينظر فيما جد من الأفضية والأحداث والنظم ، فيمرض كل ذلك على لفقته ليعرف الوجوه التي كانت بها مخالفة له ، والوجوه التي يمكن بها أن توافقه أو يقنع الناس بأنها أشياء في غيرها غنى عنها وعوض منها

وها نحن أولاء نشهد طلائع ذلك على يد طائفة من مفكرى الأزهر وبقيادة شيخه المصلح العظيم

ولن يمضي زمان طويل حتى يكثُر فينا هذا الصنف من اللقهاء ، المنتجين المجددين ، وحتى يسحب الزمان ذيل اللقهاء على « قهواء بزنتة » الجامدين !
محمد محمد المرسي

اختلف الباحثون اختلافاً كبيراً في نشأة مراكز اللغة في الفصيلة الإنسانية

فالقائلون باستقلال النوع الإنساني في نشأته عن الأنواع الحيوانية الأخرى يذهبون إلى أنه قد خلق مزوداً بهذه المراكز كما خلق مزوداً بخصائصه الأخرى كاعتدال للقامة وإدراك المعاني الكلية ... وما إلى ذلك . ويرون أن هذه المراكز كانت في مبدأ الخلق ساذجة قاصرة ؛ ثم ارتقت في بعض الشعوب حتى وصلت إلى درجة كبيرة في الدقة والوضوح ؛ على حين أنها جمدت في شعوب أخرى فلم تترجح كثيراً عن الحالة للساذجة التي خلقت عليها . ويرجع الفضل في ارتقائها إلى عوامل كثيرة منها كثرة استخدامها في وظائفها وما تمرن عليه من عادات مكنسبة واتساع الحضارة الإنسانية وارتقاء التفكير ... وهم جرا . فشان مراكز اللغة في ذلك شأن أعضاء الحس وأعضاء الحركة في الجسم الإنساني : تخلق مزودة بالقدرة على القيام بوظائفها ، وتظل قابلة للارتقاء في هذه الناحية ما أتاحت لها الوسائل المواتية ، فإن لم يتح لها ذلك نصرت عن القيام بوظائفها أو جمدت على الحالة التي كانت عليها في نشأتها الأولى

وأما القائلون بذهب الارتقاء وتفرغ الإنسان عن غيره من الفصائل الحيوانية ، فيرون أن الفضل في نشأة هذه المراكز عند الإنسان يرجع إلى الظروف التي أحاطت به في مبدأ نشأته ، وإلى الأمور التي ألبتته إليها مقتضيات حياته ، وبخاصة ما يتصل منها بشؤون دفاعه عن نفسه . وقد اختلفوا في تصور هذه النشأة على الرغم من اتفاقهم على الأسس السابق ذكرها . وأشهر نظرياتهم بهذا الصدد نظرية دارون التي تلخص في أن الإنسان كان في الأصل من الفصائل المتسلقة الأشجار ؛ ثم اضطرت ظروف قاهرة إلى التمسك على الأرض ، حيث تمرض لغارات الحيوانات القوية وسلطوها عليه . فاستخدم في مبدأ الأمر في مقاومتها أنيابه وأعضاء جسمه كما كان يفعل من قبل وكما تفعل أفراد فصيلته . ولكن هذه الوسيلة كانت تضطره إلى الارتقاء في أحضان عدوه فتعرض حياته للخطر . فهدته غريزة المحافظة على الحياة إلى وسيلة أخرى تدفع عنه عدوان الحيوان بدون أن تضطره إلى الاصطدام به . وذلك بأن يقذف عليه عن بعد قطعاً من حجارة أو خشب أو معدن ، أو بأن يمسك بطرف عصا ويدفعه عنه أو يضربه بطرفها الآخر . وقد كان لهذا الأسلوب

الجديد أتران كبيران في حياة الإنسان :

أحدهما أنه يضطره إلى الوقوف على رجلين اثنين في أثناء دفاعه عن نفسه . ومن تكرار هذه الوقفة أخذت قامته تمتد شيئاً فشيئاً حتى استوى القسم الأعلى من جسمه مع أطرافه السفلى ، وأخذت عادة المشي على أربع تضعف بالتدرج حتى انقرضت (وإن كانت تظهر في بعض مراحل الطفولة الإنسانية وفقاً لقوانين الوراثة النوعية التي تقضي بأن يمتاز الطفل في سبيله من الطفولة إلى الرجولة نفس المراحل التي اجتازها النوع في سبيله من الحيوانية إلى الإنسانية ومن الوحشية إلى الحضارة) وثانيهما (وهو الذي يهتما في موضوعنا) أن هذا الأسلوب الدفاعي قد أعنى الإنسان من استخدام فكه وأسنانه في الدفاع عن نفسه ؛ فتمطلت هذه الأعضاء عن القيام بجزء كبير من وظيفتها ونجم عن ذلك تقلص العضلات والمظام الصدغية التي تتحرك مع الفم ؛ وترتب على هذا التقلص أن اتسع مجال النمو للججمجمة ، فزاد حجمها عما كان عليه ؛ وابتساع حجم الججمجمة اتسع مجال النمو للمخ ، فزاد حجمه ونشأت به مراكز جديدة لم تكن به من قبل ، من أهمها مراكز اللغة التي نحن بصدد الكلام عنها

ولتأييد هذا الأثر الأخير ، قام العلامة أنتوني Anthony بتجربة على عدد من الجراء (الكلاب الصغيرة) ؛ وذلك بأن استأصل جزءاً من عضلاتها وعظامها الصدغية ، وتبع نمو جماجمها بعد هذه العملية ؛ فتبين له أنها أخذت تتسع أكثر من المعتاد .

وقد تصدى كثير من العلماء المحدثين للتحرى عن هذه الحقائق ، فثبت لهم فسادها من نواح كثيرة لا يهتأ منها الآن إلا الناحية المتعلقة بنشأة مراكز اللغة . فقد ظهر لهم بهذا الصد أن تعطيل للفك والأسنان ، وإن نجم عنه اتساع في الججمجمة ، لا يترتب عليه مطلقاً اتساع في حجم المخ أو اختلاف في تعاريفه أو شكل تكوينه . وللتجربة التي قام بها أنتوني تدل هي نفسها على صحة ذلك . فقد ظهر له أن جماجم الجراء قد انحسرت عن أخاها ، بدليل أن الآثار التي تنطبع عليها من ملاصقتها للمخ قد انمحت . فاتساع الججمجمة للتاجم عن تقلص عضلات الصدغ وعظامه لا يتبعه إذن اتساع في حجم المخ أو نشأة مراكز جديدة كما يزعم دارون

وكثيراً ما تنسح الججمجمة عند بعض الناس اتساعاً غير عادي لسبب آخر غير تقلص عضلات الصدغ وعظامه ، ولكن لم يحدث

مطلقاً في حالة من حالات هذا الاتساع أن زاد حجم المخ أو تغيرت صورته . وعلى العكس من ذلك نمو المخ نفسه ، فإنه يرقم الججمجمة على الاتساع ويشكلها بالشكل الذي يتفق مع نموه . فإن قامته بأن كان عظم اليافوخ (حيث يلتقي عظم مقدم الرأس بعظم مؤخره ، وهو الذي يكون ليناً في الصبي) قد اشتد قبل أوأانه ، تغلب على مقاومتها ، وشق لنفسه طريقاً على أي وجه . فأحياناً يدفعها إلى الأمام فينشأ للشخص بارز الجبهة ؛ وأحياناً يدفعها إلى الخلف فينشأ للشخص أحدب الرأس ؛ وأحياناً يدفعها إلى أعلى فينشأ مُسْتَمَّ الرأس ؛ وأحياناً يدفعها من ناحيتين أو أكثر فينشأ مُدْتَحُّ الرأس^(١) . وهكذا . فالطريق الطبيعي للارتقاء — إن كان تمت ارتقاء — هو أن يتسع المخ أولاً وتوجد فيه مراكز لم تكن موجودة من قبل ، ويتبع ذلك اتساع في الججمجمة ، لأن اتساع الججمجمة أولاً وبقبمها اتساع المخ كما يقول دارون ومن يحا نموه على أن الارتقائيين لم يكونوا في حاجة إلى هذه الفروض

للتصفية لتطليل نشأة مراكز اللغة بطريقة تتفق مع مبادئهم . فقد كان في إمكانهم أن يذهبوا إلى أن هذه المراكز لم تنشأ من اللدم ، بل كانت نتيجة تطور لمراكز قديمة أو لأجزاء من مراكز قديمة . كان في إمكانهم مثلاً أن يذهبوا إلى أن جزءاً من مراكز الحركة الخاصة بعضلات الوجه Centre des mouvements des muscles de la face قد تخصص في حركة أعضاء النطق ، ومع تقادم الزمن وكثرة مزاواته لهذه الوظيفة تشكل بالشكل الذي يتفق معها واستقل عن غيره وأخذ يسير في سبيل الارتقاء حتى وصل إلى الحالة التي هو عليها الآن ، كان في إمكانهم أن يقولوا هذا بصدد مراكز الكلام ويقولوا مثله بصدد المراكز الثانوية الأخرى ، فيتقوا معظم ما وجه إلى فروضهم السابقة من اعتراضات ، ويكون مذهبهم أدنى إلى القبول وأكثر اتفاقاً مع حقائق الأمور ، وذلك أنه بالموازنة بين مخ الإنسان وأخاخ الحيوانات القريبة منه ، يظهر أن مراكزه اللغوية — على فرض أنها لم تكن موجودة في أصل خلقته — كانت نتيجة تشكيل جديد لبعض المراكز الموجودة في أخاخ هذه الحيوانات

على غير الواجب راني

ليسانسيه ودكتور في الآداب من جامعة السوربون

(١) رجل مدخ الرأس أي في رأسه ارتفاع وانخفاض ، المخصص لابن سبويه جزء أول ص ٦٢ ، وبالعامية تقول شخص برأسه أو برؤوس